إذن فالرسول يشترك مع الراعى فى الدعاء والنداء ، وهم اشتركوا مع المرعىّ فى أنهم لم يفهموا إلا الدعاء والنداء فقط ، وفى الاستجابة هم « صم بكم عمى » ، فالمدعو به لم يسمعوه ، وكأنهم اشتركوا مع الحيوان فى أنهم لا يستمعون إلا للدعاء والنداء ، إنما المدعو به ومضمون النداء هم لا يعقلونه ولا يفهمونه . وبكم لا ينطقون بمطلوب الدعوة وهو « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ، وليس عندهم عقل يدير حركة العيون لينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ليظهر لهم وجه الحق فى هذه المسألة .

إذن فمثل الذين كفروا بالرسول كمثل الماشية مع الراعى ، فهم لا يسمعون إلا مجرد الدعاء ، كما أن الماشية تسمع الراعى ولا تعقل ، مع الفارق ؛ لأن الدواب ليس مطلوبا منها أن ترد على من يناديها . ولا تسمع غير ذلك من المدعو به لذا كان الكافرون شر الدواب .

وقول الحق : « صُم » أى مصابون بالصمم ؛ وهو آفة تمنع الأذن من أداء مهمتها . و« بُكم » أى مصابون بآفة تصيب اللسان ؛ فتمنعه من أداء مهمته ، إلا أن السبب فى الصمم سبب إيجابى ، لأن هناك شيئا قد سد منفذ السمع فلا تسمع ، وبسبب الصمم فهم بكم ، والبكم هو عجز اللسان عن الكلام . لأن الإنسان إن لم يسمع فهو لن يتكلم . ولذلك فإن الإنسان إذا وُجد فى بيئة عربية فهو يتكلم اللغة العربية ، وإذا نشأ الإنسان فى بيئة إنجليزية فهو يتكلم لغة إنجليزية . وهبْ أنك قد نشأت فى بيئة تتكلم العربية ثم لم تسمع كلمة من كلماتها هل تتكلم بها ؟ لا . إذن . فاللسان ينطق بما تسمعه الأذن ، فإذا لم تسمع الأذن لا يتكلم اللسان . والصمم يسبق البكم ، ولذلك فالبكم هو آفة سلبية ، وتجد أن اللسان يتحرك ويُصوّت أصواتاً لا مدلول لها ولا مفهوم . فهل نفهم من قوله تعالى عنهم . « صُم » أنهم مصابون بالصمم ؟ . لا . إن الحق يقول : لقد جعلت الأذن لتسمع السماع المفيد ؛ فكأنها معطلة لا تسمع شيئا . وكذلك اللسان أوجدته ليتكلم الكلام المفيد ، بحيث من لا يتكلم به كأنه أبكم ، والعقل أوجدته ليفكر به ؛ فإذا لم يفكر تفكيرا سليما منطقيا ، فكأن صاحبه لا عقل له . فالأصم حقيقة خير من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصم له عذره ، والأبكم كذلك ، والمجنون أيضا له عذره ، فليت هؤلاء الكفار كانوا كذلك ، لقد صموا آذانهم عن سماع الدعوة ، وهم بُكم عن النطق بما ينجيهم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وهم عمى عن

النظر فى آيات الكون ، فلو أن عندهم بصرا لنظروا فى الكون كما قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فلو أنهم نظروا فى خلق السماوات والأرض ؛ لاعتدوا بفطرتهم إلى أن لهذا الوجود المتقن المحكم صانعا قد صنعه ، لكنهم لا يعقلون ، لأن عملية العقل تنشأ بعد أن تسمع ، وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان فى تكوينه الأول حركى حسّى ، يرى ويسمع ويتذوق ثم تتكون عنده من بعد ذلك القضايا العقلية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

وهذا خطاب من الله للذين آمنوا بأن يأكلوا من الطيبات ، وقد سبق فى الآية ١٦٨ خطاب مماثل فى الموضوع نفسه ؛ ولكن للناس جميعا وهو قوله تعالى : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » . وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الناس جميعا ، فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان ، ولكن حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان ، فالله لا يكلف بحكم إلا من آمن به ، أما من لم يؤمن به ، فلا يكلفه بأى حكم ، لأن الإيمان التزام . ومادمت قد التزمت بأنه إله حكيم ؛ فخذ منه أحكام دينك .

وعدل الله اقتضى ألا يكلف إلا من يؤمن ، وهذا على خلاف مألوف البشر ، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمن يرضى بقيادتهم ومن لم يرض ، وإذا كان للقائد من البشر قوة ، فإنه يستخدمها لإرغام من يوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول .

وخطاب الله للمؤمنين هنا جاء بقوله : « كلوا من طيبات مارزقناكم » ، ذلك أن المؤمن يتيقن تماما بأن الله هو الخالق وهو الذى يرزق . ويذيل الآية الكريمة بقوله : « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » ، فشكر العبد المؤمن للرب الخالق واجب ، مادام العبد المؤمن يختص الله بالعبادة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

ونجد أن استخدام « الموت » يأتى فى كلمات متنوعة ، ففيه : « ميِّت » و« ميْتة » ، و« ميِّتة » ، ومثال ذلك ما يقوله الحق :

﴿ فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٩ سورة فاطر)

و «الميّت» بتشديد الياء هو مَنْ ينتهى أمره إلى الموت وإن كان حياً ، فكل واحد منا يقال له أنت ميّت ، أى مصيره إلى الموت ، ولذلك يخاطب الله رسوله :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(سورة الزمر)

إذن ، فكلمة « ميّت » معناها أنك ستموت ، رغم أنك الآن حى .

لكن عندما نقول : « مَيْت » ، بتسكين الياء ، فمعناها مات بالفعل ، وفى الشعر العربى جاء :

وما المَيْت إلا من إلى القبر يُحمل.

والحق سبحانه وتعالى يقول : «إنما حرم عليكم الميتة والدم » ، ولو قال: «الميِّتة» بتشديد الياء، لقلنا : إن كل شىء سيموت يصير محرما ، لكن كلام الله هنا عن الميْتة ـ بالياء الساكنة ـ وهى الميتة بالفعل ، وهى التى خرجت روحها حتفاً ؛ لأنّه فيه خروج الروح إزهاقاً بمعنى أن تذبحه فيموت ؛ لكن هناك مخلوقات تموت حتف أنفها ، وساعة تموت الحيوانات حتف أنفها تُحتبس فيها خلاصة الأغذية التى تناولتها وهى الموجودة بالدم؛ وهذا الدم فيه أشياء ضارة كثيرة ، ففى الدم مواد ضارة فاسدة استخلصتها أجهزة الجسم وهى حى ، وكانت فى طريقها إلى الخروج منه، فإذا ما ذبحناه ؛ سال كل الدم الفاسد والسليم ، ولأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، فإننا نضحى بالدم السليم مع الدم الفاسد . وهذا الدم يختزنه الجسم عندما يموت ، وتظل بداخله الأشياء الضارة فيصبح اللحم مملوءاً بالمواد الضارة التى تصيب الإنسان بالأمراض . ونظرة بسيطة إلى دجاجتين ، إحداهما مذبوحة أريق دمها ، والأخرى منخنقة أى لم يرق دمها ، فإننا نجد اختلافاً ظاهراً فى اللون ، حتى لو قمنا بطهى هذه وتلك فسنجد اختلافاً فى الطعم ، سنجد طعم الدجاجة المذبوحة مقبولاً ، وسنجد طعم الدجاجة الميتة غير مقبول، وكان الذين لا يؤمنون بإله أو بمنهج يقومون بذبح الحيوانات قبل أكلها ، لماذا ؟ لقد هدتهم تجاربهم إلى أن هذه عملية فيها مصلحة ، وإن لم يعرفوا طريقة الذبح الإسلامية .

وحين يحرم الله « الميتة » فليس هناك أحد منا مطالب أن يجيب عن الله : لماذا حرم الميتة ؟ ، لأنه يكفينا أن الله قال : إنها حرام ، ومادام الذى رزقك قال لك : لا تأكل هذه ؛ فقد أخرجها من رزقية النفعية المباشرة ، ولو لم يكن فيها ضرر نعلمه ، هو سبحانه قد قال : لا تأكلها ، فلا تأكلها ، لأنه هو الذى رزق ، وهو الذى خلقك ، وهو الذى يأمرك بألا تأكلها ، فليس من حقك بعد ذلك أن تسأل لماذا حرمها على؟.

وهب أننا لم نهتد الى حكمة التحريم ، ولم نعرف الأذى الذى يصيب الإنسان من أكل الميتة ؟ هل كان الناس يقفون عند الأمر حتى تبدو علته ، أم كانوا ينفذون أوامر الله بلا تفكير ؟ لقد استمع المؤمنون لأوامر الحق ونفذوها دون تردد .

إذن ، فمادام الله يخاطبنا ، فبمقتضى حيثية الإيمان يجب أن نتقبل عنه الحكم ، وعلة قبول الحكم هى صدوره من الذى حكم . أما أن نعرف علة الحكم ، فهذه عملية إيناس للعقل ، وتطمين على أن الله لم يكلفنا بأمر إلا وفيه نفع لنا ، والمؤمن لا يصح أن يجعل إيمانه رهناً بمعرفة العلة .

إن الحق يقول : « إنما حرم عليكم الميتة » والآية صريحة فى أن كل ميتة حرام ، ومادامت ميتة فقد كان فيها حياة وروح ثم خرجت ، لكننا نأكل السمك وهو ميت ، وذلك تخصيص من السّنة لعموم القرآن ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« أحل لكم ميتتان : السمك والجراد ، ودمان ؛ الكبد والطحال »[1] .

لماذا هذا الاستثناء فى التحليل ؟ لأن للعرف فى تحديد ألفاظ الشارع مدخلاً ، فإذا حلفت ألا تأكل لحماً وأكلت سمكا فهل تحنث ؟ . لا تحنث ؛ ويمينك صادقة ؛ رغم أن الله وصف السمك بأنه لحم طرىّ ، إلا أن العرف ساعة يُطلق اللحم لم يدخل فيه السمك .

إذن ، فالعرف له اعتبار ، لذلك فالزمخشرى صاحب الكشاف يقول فى هذه المسألة : « لو حلفت ألا تأكل اللحم وأكلت السمك فإجماع العلماء على أنك لم تحنث

---

(١) هذا حديث أخرجه الشافعى وأحمد وابن ماجه والدارقطنى والحاكم والبيهقى عن ابن عمر مرفوعا وموقوفا

فى يمينك » . وضرب مثلا آخر فقال : لو حلفت بأن تركب دابة ، والكافر قد أسماه الله دابة فقال : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » فهل يجوز ركوب الكافر ؟ . لا يجوز فكان مقتضى الآية أنه يصح لك أن تركبه وعلق على ذلك قائلا : صحيح أن الدابة هى كل ما يدب على الأرض ، إلا أن العرف خصصها بذوات الأربع .

لهذا كان للعرف مدخل فى مسائل التحليل والتحريم . فإذا قال قائل : إن الله حرم الميتة ، والسمك والجراد ميتة فلماذا تأكلها ؟ . نرد عليه : إن العرف جرى على أن السمك والجراد ليسا لحماً ، بدليل قولهم : « إذا كثر الجراد أرخص اللحم » ، وذلك يعنى أن الجراد ليس من اللحم .

أما بالنسبة للسمك ، فالسمك لم يكن كالميتة التى حرمها الله لأن الميتة المحرمة هى كل ما يذبح ويسيل دمه ، والسمك لا نفس سائلة له أى لا دم له . والجراد أيضا لا دم فيه ، إذن ، فتحليل أكله وهو ميت إنما جاء بسبب عدم وجود نفس سائلة يترتب عليها انتقال ما يضر من داخله إلى الإنسان ، وكذلك الكبد والطحال أيضا ليسا بدم ؛ فالدم له سيولة ، والكبد والطحال لحم متجمد منماسك ، خلاصة دم تكوّن منه عضو الكبد وعضو الطحال .

إذن ، السنة لها دور بيان فى التحليل والتحريم ، وقوله الحق : « إنما حرم عليكم الميتة والدم » يعنى أنه سبحانه قد حرمها لأجل بقاء الدم فى الميتة وعدم سيلانه ، ومن باب أولى ؛ كان تحريم الدم أمراً واجباً . وحرم الحق « لحم الخنزير » وقلنا إن علة الإقبال على الحكم هو أمر الله به ، فإذا أثبت الزمن صدق القضية الإيمانية فى التحليل ؛ فذلك موضوع يؤكد عملية الإيمان ، لكن لو انتظرنا وأجلنا تنفيذ حكم الله حتى نتأكد من علة التحريم ؛ لكنا نؤمن بالعلماء والاكتشافات العلمية قبل أن نؤمن بالله . لأننا إن انتظرنا حتى يقول العلماء كلمتهم ؛ فقد اعتبرنا العلماء آمن علينا من الله . وهل يوجد مخلوق آمن على مخلوق من الخالق ؟ .

إن ذلك مستحيل . إذن فالمؤمن من يأخذ كل حكم صادر من الله ، وهو متيقن أن الله لا يأمره إلا بشىء نافع له ، وفى الحقيقة فالشىء الضار غير ضار فى ذاته ، فقد ينفع فى أشياء أخرى . ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فأنت ساعة تعاقب ابنك بأمر من الأمور ، فتحرمه من المصروف أو تحرمه من أكلة شهية ، فإن ذلك العقاب ليس ضاراً فى ذاته ، إنما إغراقك إياه بما يحب ويطلب ، مع سيره فى

طريق لا ترتضيه ، هو دعوة للابن أن يستمر فى فعل ما لا ترتضيه . إن عدم تربية الابن بالثواب والعقاب هو أمر ضار .

ولذلك نقول للذين يريدون أن يوجدوا علة لكل مُحَرَّم : أنتم لم تفطنوا إلى تحريم التأديب ، فهناك تحريم لأمر لأنه ضار ، وهناك تحريم لأمر آخر لأنك تريد أن تحرمه تأديباً له ، وأنت لا يصح منك أن تجعل عملية التأديب فى القيم دون عملية الإصلاح فى المادة البدنية . والحق سبحانه وتعالى أرحم بخلقه من الأب بابنه ، وهو قد حرم بعضاً من طيبات الحياة على بنى إسرائيل للتأديب ، فقال عز وجل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالحق حرم عليهم الطيبات كتأديب لهم على ظلمهم لأنفسهم . إذن ، ساعة ترى تحريماً فلا تنظر إلى تحريم الشىء الضار ، لكن انظر أيضا إلى أن هناك تحريماً من أجل التأديب ، لأن إباحة بعض من الطيبات لهؤلاء مع كونهم مخالفين للمنهج هو إغراء لهم بأن يكونوا مخالفين دائما ، ظالمين لأنفسهم .

فالحق قد منع ما يضر الإنسان فى بدنه ، ومنع أيضا بعضا من الطيبات على بعض المخالفين كتأديب لهم . وبالنسبة لتحريم الخنزير ، فقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يكشف لخلقه سر التحريم ، فأثبت العلماء أن هناك أمراضاً فى الخنزير لم تكن معروفة قبل ذلك ، وتبين لهم خطورتها مثل الدودة الشريطية ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لهم سراً واحداً هو الدودة الشريطية ، فربما هنا أسرار أخرى أخطر من الدودة الشريطية .

ويحرم الحق أيضا « وما أهل به لغير الله » والإهلال هو رفع الصوت ، ولذلك يقال : هلل أى رفع صوته بلا إله إلا الله ، ويُسمى الهلال هلالاً ؛ لأننا ساعة نراه نهلل ونقول : « الله أكبر ، ربى وربك الله » وساعة يولد الولد ، ويخرج من بطن أمه يتنبه إلى حياته وإلى ذاتية وجوده بعد أن كان ملتحماً بذاتية أمه فهو يصرخ ، إنه يبدأ حياته بالصراخ ، ولذلك فالذين ينتظرون مولد الطفل عندما يسمعون لصرخته يطمئنون .

ولذلك يقول الشاعر :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

كأن الوليد يقبل على شيء فيه نكد ، ولا يلتفت إلى ما فى اتساع الدنيا ورغد العيش فيها . وإلا فما يبكيه وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد ؟ . فكأن صرخة الوليد هى صرخة الانتقال من رحم الأم إلى مواجهة الحياة .

كانت حياة الطفل فى بطن أمه رتيبة وغذاؤه من الحبل السرى ، لكنه ساعة ينفصل من أمه تنقطع صلته بجهاز تحضير الغذاء فى رحم الأم ، وفقد المدد الغذائى فى لحظة خروجه من بطن أمه ولم يأته مدد الرضاعة بعد ؛ فالرضاعة من مدد الدنيا ، ولا يأخذها الطفل إلا إذا أخذ أقل نسبة من الهواء ليدير الرئة ، ولذلك يحرص الأطباء فى أن ينزل الوليد من جهة رأسه دائماً ، لأنه لو نزل من ناحية رجليه ورأسه مازال بالداخل ، فإن أنفاسه تكون محبوسة فى بطن أمه ، ويكاد يموت ، ولذلك يكشفون الأن على الأم ليعرفوا وضع الجنين ، ويقوم الطبيب بإجراء الجراحة القيصرية حرصا على حياة الوليد . وأول شيء يقوم به الطبيب بعد ميلاد الطفل هو أن يُسلك منافذ الهواء إلى أنفه . وبعد ذلك يعالج بقية الأعضاء .

إنها صرخة الغريزة ، تماماً مثل ما تنهر أمه عنه وجاء موعد رضعته فهو يصرخ . وهكذا نعرف أن الإهلال هو رفع الصوت ، وقوله الحق : « وما أهل به لغير الله » يعني هو رفع الصوت لحظة الذبح ، والذبح نوعان : ذبح لنفعك لتأكل ويأكل غيرك ، وذبح قربى لله . وما أهل به لله ، هو ذبح قربى لله ، أما « ما أهل به لغير الله » فهو الذبح لمنفعة الإنسان فقط ، وتقرباً إلى أصنامهم وأوثانهم وما يعبدونه من دون الله .

ومادام الله هو الذى أعطى الحيوانات وسخرها لنا من أجل أن نأكلها ؛ فعلينا أن نذكر المنعم ، وأن تكون القربى لله وحده هى القصد الأول . ولذلك فالمؤمنون يتقربون ويأكلون ، أما الكفار فيأكلون ولا يتقربون لله وإنما يذبحون ويتقربون إلى آلهتهم

والحق سبحانه وتعالى حينما شرع ، فتشريعه يضع الاحتمالات ، وليس كالمشرعين من البشر الذين تصطرهم أحداث الحياة بعد التشريع إلى أن يغيروا ما شرعوا ؛ لأنه

حدثت أقضية بعد تطبيق التشريع لم تكن فى بالهم ساعة شرعوا ، وذلك لقصور علمهم عما يحدث فى الكون من القضايا التى تضطرهم وتلجئهم إلى أن يعدلوا القانون . فتعديل أى قانون بشرى معناه حدوث أقضية لا يوجد لها تكييف فى القانون عند التطبيق ؛ فيلجأ المشرعون إلى تعديل القانون ، ليضعوا فيه ما يتسع لهذه الأقضية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى ساعة قنن .. فهو يقنن تقنينا يحمل فى طياته كل ما يمكن أن يستجد من أقضية دون حاجة إلى تعديل ، ولأن الإسلام جاء منهاجاً خاتما ولا منهج للسماء بعده ، لذلك كان متضمنا كافة الاحتمالات . لقد كان من المعقول تعديل التقنينات عندما كانت الرسل تتوالى ، لكن عندما ختم الله رسالات السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كان لابد أن تكون التشريعات التى أنزلها الله على رسوله تحمل فى ذاتها ضمانات تكفل ذلك .

إذن ، فالضرورات التى اقتضت المشرع الوضعى أن يعدل قانوناً غفل عن جزئياته ساعة وضعه الأول ، مثل هذه الأمور لا توجد فى تشريعات السماء ، لأن الله يعلم الأقضية التى تجىء .

وهب أن الضرورة التى تستلزم التعديل لم تكن موجودة ، وبعد ذلك جدت ضرورات ، أكان الحق يميت خلقه لأنه قال : لا تأكلوا الميتة ؟ عندئذ كنا سنقول : ما هذه الحكاية ؟ صحيح الميتة ستضر ، وإنما المخمصة والمجاعة ستميت ، فلماذا لا نتحمل أكل ما يضر بدلاً من أن نمتنع عن الأكل فنموت من الجوع ؟

إذن فهى عدالة الحق التى قالت : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » فالاضطرار له شرط هو : « غير باغ ولا عاد » . وغير باغ يعنى غير متجاوز الحد ، فيأخذ على قدر حاجته الضرورية ، مثلا ، لا يقول : إن الله أحل الميتة لمثل ما أنا عليه من الاضطرار ويملأ بطنه منها ، لا ، إن عليه أن يأخذ على قدر استبقاء الحياة . ولا يظنن أن ذلك يصبح حلالاً ؛ بل يقول : إن هذا حرام أبيح للاضطرار .

وأيضا لابد أن نلحظ قيمة الحقوق المتعلقة بالآخرين ، هب أن إنساناً يملك فنجان ماء لا يكفيه إلا ليروى حلقه ، وبعد ذلك جاء شخص آخر مضطر وقوى وضربه ليأخذ منه هذا الفنجان نقول لهذا المعتدى : لا تعتد لأن للملكية سبقاً ،

فإن اتسعت لكما كمية الماء معاً فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تتسع ، فصاحب الملكية أولى بالماء ، ولا يقولن هذا الآخر : « أنا مضطر لأن آخذها منه » . إن اضطراره سيدفع عنه المضرة ويوقعها في غيره .

إذن ، فالمقاييس عند الضرورة تظل كما هي ، فلابد من احترام الحق والسبق ، ولا يصح أن نتجاوز بالضرورة قدرها ، هذا معنى قوله : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، وقوله الحق : « فلا إثم عليه » يدل على أن المسألة فيها إثم أباحها الله عز وجل للضرورة ، وذلك حتى لا نحلها تحليلاً دائماً ، فإذا مازالت الضرورة عُدنا إلى أصل الحكم .

ويختم الحق الآية بقوله : « إن الله غفور رحيم » ونتساءل : ما علاقة « غفور رحيم » بهذه الآية ؟ إن المغفرة والرحمة تقتضيان ذنوباً ، وما سبق كله هو قول الحق وتشريعه ، وتحريم الميتة إلا عند الضرورة هو كلام الحق ، والمضطر حين يأخذ منها على قدر الضرورة فإنما هو إباحة من الحق ، فلا ذنب - إذن - يقتضي تذييل الآية بقوله : « إن الله غفور رحيم » ؟ .

ونقول : إذا كان الله يغفر مع الذنب ، أفلا يغفر مع الضرورة التي شرع لها الحكم ، إن المنطق يقول : إن الله يغفر الذنب الذي يحدث بلا مناسبة تستدعيه ، أفلا يغفر للمضطر الذي أجبرته الظروف على أكل الميتة ؟ . إن الله غفور في الأصل ، أفلا يغفر لمن أعطاه رخصة ؟ إذن فهو غفور رحيم ، ولن يكتب على المضطر ذنباً من جراء اضطراره . إن رحمة الله التي تغفر للعاصي الذي اجترأ على الحق بلا مناسبة ، هو سبحانه الذي كتب المغفرة لمن اضطر وكسر قاعدة التحريم عند الاضطرار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ينزل بوساطة رسله على خلقه ليحكم المنهج حركة الحياة للناس وعلى الناس ، إنه يحكم للناس أى لصالحهم ، ويحكم على الناس إن فوتوا المصالح ، لأن الذى يُفَوّت مصلحة لسواه عنده ، لابد أن يلحظ أن غيره سيفوّت على مصلحة عنده .

إذن ، فمن الإنصاف فى التشريع أن نجعل له وعليه ، فكل « تكليف عليه » يقابله « تكليف له » ، لأنه إن كان له حق ، فحقه واجب على سواه ، ومادام حقه واجباً على ما سواه ، فلزم أن يكون حق غيره واجباً عليه ؛ وإلا فمن أين يأخذ صاحب الحق حقه ؟

والحق سبحانه وتعالى حين ينزل المنهج يبلغه الرسل ويحمله أولو العلم ؛ ليبلغوه للناس . فالذين يكتمون ما أنزل الله إنما يصادمون منهج السماء . ومصادمة منهج السماء من خلق الله لا تتأتى إلا من إنسان يريد أن ينتفع بباطل الحياة ؛ ليأكل حق الناس . فحين يكتمون ما أنزل الله ، فقد أصبحوا عوائق لمنهج الله الذى جاء ليسيطر على حركة الحياة .

وما نفعهم فى ذلك ؟ . لابد أن يوجد نفع لهم ، هذا النفع لهم هو الثمن القليل ، مثل « الرشا » ، أو الأشياء التى كانوا يأخذونها من أتباعهم ليجعلوا أحكام الله على مقتضى شهوات الناس .

فالله يبين لهم : أن الشيء لا يُثمن إلا بثمين من يعلم حقيقته ، وأنتم تُثمّنون منهج الله ، ولا يصح أن يُثمّن منهج الله إلا الله . ولذلك يجب أن يكون الثمن الذى وضعه الله لتطبيق المنهج ثمنا مربحا مقنعا لكم ، فإن أخذتم ثمنا على كتمان منهج الله وأرضيتم الناس بتقنين يوافق أهواءهم وشهواتهم ، فقد خسرتم فى الصفقة ؛ لأن ذلك الثمن مهما علا بالتقدير البشرى ؛ فهو ثمن قليل وعمره قصير .

والأثمان عادة تبدأ من أول شيء يتعلق بحياة الإنسان هو قوام حياته من مأكل ومشرب ، لذلك قال الله سبحانه وتعالى : « أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » وإذا كانوا يأكلون فى بطونهم ناراً فكيف يكون استيعاب النار لكل تلك البطون ؟

لأن المؤمن كما قال الرسول يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، أى إن الكافر لا يأكل إلا تلذذاً بالطعام ؛ فهو يريد أن يتلذذ به دائما حتى يضيق بطنه بما يدخل فيه . لكن المؤمن يأخذ من الطعام بقدر قوام الحياة ، فسيد الخلق محمد ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث الشريف :

« حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده »[1]

إذن فالأكل عند المؤمن هو لمقومات الحياة وكوقود للحركة ، ولكن الكافر يأخذ الأكل كأنه منعة ذاتية . والحق يقول : « أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » يعنى كما أرادوا امتلاء بطونهم شهوة ولذة ، فكذلك يجعل الله العذاب هم من جنس ما فعلوه بالثمن القليل الذى أخذوه ، فهم أخذوا ليملأوا بطونهم من خبيث ما أخذوا وسيملأ الله بطونهم ناراً ، جزاء وفاقا لما فعلوا ، وهذا لون من العقاب المادى يتبعه لون آخر من العقاب هو « ولا يكلمهم الله » أى أن الحق ينصرف عنهم يوم لا أنس للخلق إلا بوجه الحق .

---

(١) هذا الحديث أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب والزبيدى فى إتحاف السادة المتقين والقرطبى فى تفسيره والكحال فى الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية

ونحن حين نقرأ كلمة « لا يكلم فلان فلاناً » نستشعر منها الغضب ؛ لأن الكلام فى البشر هو وسيلة الأنس ، فإذا ما امتنع إنسان عن كلام إنسان ، فكأنه يبغضه ويكرهه . إذن « لا يكلمهم الله » معناها أنه يبغضهم ، وحسبك بصدود الله عن خلقه عقابا وعذابا . لقد والاهم بالنعمة وبعد ذلك يصد عنهم . ويقول قائل : كيف نقرأ هنا أن الحق لا يكلمهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

نقول : صحيح أنه سبحانه يقول لهم : « لا تكلمون » ولكن الكلام حين ينفى من الله فالمقصود به هو كلام الحنان وكلام الرحمة وكلام الإيناس واللطف ، أما كلام العقوبة فهو اللعنة . إذن « لا يكلمهم الله » أى لا يكلمهم الحق وصلا للأنس . ولذلك حين يؤنس الله بعض خلقه يطيل معهم الكلام . ومثال ذلك عندما جاء موسى لميقات ربه ، ماذا قال الله له ؟

قال عز وجل :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

فهل معنى هذا السؤال أن الله يستفهم من موسى عما بيده ؟ . إنه سؤال الإيناس فى الكلام حتى يخلع موسى من دوامة المهابة .

وضربنا مثلا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ حينما يذهب شخص إلى بيت صديقه ليزوره ، فيأتى ولده الصغير ومعه لعبة ، فيقول الضيف للطفل : ما الذى معك ؟ إن الضيف يرى اللعبة فى يد الطفل ، لكن كلامه مع الطفل هو للإيناس . وعندما جاء

كلام الله بالإيناس لموسى قال له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

كان يكفى موسى أن يقول : عصا ، وتنتهى إجابته عن السؤال ، ولو قال موسى : عصا ، لكان ذلك منه عدم استيعاب لتقدير إيناس الله له بالكلام ، لكن سيدنا موسى عليه السلام انتهز سؤال الله له ليطيل الأنس بالله فيقول :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة طه)

تأمل التطويل فى إجابة موسى . إنّ كلمة « هى » زائدة ، و« أتوكأ عليها » زائدة أى غير محتاج إليها فى إفادة المعنى ، و« أهش بها على غنمى » تطويل أكثر ، و« لى فيها مآرب أخرى » رغبة منه فى إطالة الحديث أكثر .

إذن فكلام الله والنظر إليه سبحانه أفضل النعم التى ينعم الله بها على المؤمنين يوم القيامة .

فإذا كان الله سيمنع عن الكافرين وسائل التكريم المادى فلا يكلمهم ، فهذه مسألة صعبة . « لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته ؛ ولا يطهرهم من الخبائث التى ارتكبوها ؛ ولا يجعلهم أهلا لقربه ، بعد ذلك يعذبهم عذاباً شديداً ؛ كأنّ فيه عذابا سابقا ؛ ثم يأتى العذاب الأشد ، لأنهم لابد أن يلاقوا عذاباً مضاعفاً ، لأنهم كتموا منهج الله عن خلق الله ، فتسببوا فى إضلال الخلق ، فعليهم وزر ضلالهم وأوزار فوق أوزارهم لأنهم أضلوا سواهم .

ومسألة كلام الله للناس أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال :

« ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »(١)

ما سر حرمان هؤلاء من كلام الله وتزكيته والنظر إليهم ؟ إن الشيخ الزانى يرتكب إثماً ، لا ضرورة له لأنه لا يعانى من سعار المراهقة . والملك الذى يكذب ، إنما يكذب على قوم هم رعيته ، والكذب خوف من الحق ، فممّنْ يخاف الملك إذا كان الناس تحت حكمه ؟ . وعائل الأسرة عندما يصيبه الكِبْرُ وهو فقير ، سيسبب له هذا الكِبْرُ الكثير من المتاعب ويضيق عليه سبل الرخاء وسبل العيش ويجعله فى شقاء من العيلة ، فإن أراد أحد مساعدته فيكون الكبر والإستعلاء على الناس حائلاً بينه وبين مساعدته ، وهذا هو معنى « لا يكلمهم ولا يزكيهم » ، فما معنى « لا ينظر إليهم »؟ إن النظر شراك العطف ، ولذلك يقطع الحق عنهم باب الرحمة والعطف من الأصل ، وهو النظر إليهم ، ويُذيّل الحق الآية الكريمة بقوله : « ولهم عذاب أليم » أى مؤلم ، وعندما تسمع صيغة « فعيل » فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم « اليم » على أنه مؤلم .

ثم يقول الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ﴾

يذكر الله لنا حيثيةَ الحكم عليهم ؛ ولماذا لا يكلمهم ، ولماذا لا يزكيهم ، ولماذا يكون لهم فى الآخرة عذاب أليم ؟ إنهم قد بدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب

(١) (أخرجه الإمامُ مسلم فى صحيحه والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

بالمغفرة . وعندما ترى فظاعة العقاب فلا تستهوله ، ولكن انظر إلى فظاعة الجُرم . إن الناس حين يفصلون الجريمة عن العقاب فهم يعطفون على المجرم ؛ لأنهم لا يرون المجرم إلا حالة عقابه ومحاكمته ونسوا جريمته ، ولذلك فساعة ترى عقوبة ما وتستفظعها ؛ فعليك استحضار الجرم الذى أوجب تلك العقوبة . ولذلك نجد الناس غالباً ما يعطفون على كل المجرمين الذين يحاكمون وتصدر عليهم عقوبات صارمة ، لأن الجريمة مرّ عليها وقت طويل ، ولم نرها ، وآثارها وتبعاتها إنتهت . ولم يبق إلا المجرم ؛ فيعطفون عليه ، ولذلك فمن الخطأ أن تطول الإجراءات فى المحاكمات ، بل لابد من محاكمة المجرم من فور وقوع الجريمة وهى ساخنة ؛ حتى لا يعطف عليه الجمهور ، لأن تعطيف قلب الجمهور عليه يجعل العقوبة قاسية .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ونعرف أن « الباء » تدخل على المتروك ، فالضلالة هنا أخذت وترك الهدى ، واستبدلوا العذاب بالمغفرة ، ومادامو قد أخذوا الضلالة بدلا من الهدى ، والعذاب بدلا من المغفرة ، فالعدالة أن يأخذوا العذاب الأليم .

وبعد ذلك يقول الحق : « فما أصبرهم على النار » هذا تبشيع للعقاب حتى يُنَفِّر منه الناس . ويريد منا الله أن نتعجب ، كيف يجوز للضال أن يترك الهدى ويأخذ الضلال ، وبعد ذلك تكون النتيجة أن يأخذ العذاب ويترك المغفرة . فما الذى يعطيه الأمل فى أن يصبر على النار ؟ ، هل عنده صبر إلى هذا الحد يجعله يقبل على الذنب الذى يدفعه إلى النار ؟ . وما الذى جعله يصبر على هذا العذاب ؟ أعنده قوة تُصَبِّره على النار ؟ وما هذه القوة ؟ .

وكأن الحق يقول : أنت غير مدرك لما ينتظرك من الجزاء وإلا ما الذى يصبرك على هذه النار ؟ إنك تتمادى فى طغيانك وضلالك ، وتنسى أن النار ستكون من نصيبك ؛ فإذا كنت متيقناً أن النار من نصيبك ؛ فكيف أخذت أماناً من صبرك على النار . فالنار أمر لا يصبر عليه إنسان أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وذلك إشارة إلى ما تقدم ، وما تقدم هو الضلالة التى أخذوها وتركوا الهدى ، والعذاب الذى أخذوه بدلاً من المغفرة ، ونار يعذبون فيها ، وقد صبروا عليها ، إنها ثلاثة أشياء ملتقية ؛ العذاب ، والضلالة ، والنار .

فالضلال هو السبب الأصيل فى العذاب ، فإذا قال الله : عاقبتهم بكذا لأنهم ضلوا ، فذلك صحيح ، وإذ قال : فعلت فيهم ذلك لأنهم استحقوا العذاب ، فهو صادق ، والعذاب كحكم عام يكون بالنار .

إذن ، عندما يقول الحق : بالنار أو بالعذاب أو بالضلال فمرجعها جميعا واحد ، يقال عنه : « ذلك » . « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » والذى يغير الكتاب ويكتمه إنما يكره الحق . « وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » . إنها هوة واسعة يسقطون فيها ، فالشقاق فى القيم المنهجية السماوية هو هوة كبيرة ، فلو كان الخلاف فى أمور مادية لأمكن للبشر أن يتحملوها فيما بينهم ، ولكانت مسألة سهلة . ولكن الخلاف فى أمر قيمى لا يقدر البشر على أن يصلحوه فيما بينهم ، من هنا فإن شقة الخلاف واسعة ، ولا يقوى على حلها إلا الله ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

وعندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين فى صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون ووجهتهم إلى بيت المقدس ، عند ذلك حدثت بلبلة ، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة : فالمسلمون يتجهون إلى الكعبة ، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس ، والنصارى يتجهون إلى المشرق .

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس فى مسألة اتجاه الصلاة ، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصلى يتجه إلى مُتجه ، وتغيير المتجه ليس فيه مشقة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم : لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر ؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه ؛ فلا مشقة فى توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين إلى بيت المقدس ، إنما المسألة هى امتثال لأمر الآمر ، فالبر إذن ليس فى

الأمور السهلة التى لا مشقة فيها ، وإنما فى الخير الواسع الكثير ، ويشمل الإيمان ، ويشمل التقوى ، ويشمل الصدق ، ويشمل الطاعة ، ويشمل الإحسان ، وكل وجوه الخير تدخل فى كلمة « البر » . فالبر معناه كبير واسع ، ومادام معناه متسعا هكذا فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة .

وانظروا إلى مطلوب البر ، ومتعلقات البر التى تتطلب منكم المشقة ، ولا تختلفوا فى المسألة السهلة اليسيرة التى لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير اتجاه القبلة ، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو البر نقول لكم : لا ، البر له مسئوليات تختلف ، إن متعلق البر هو أن يختبر صدق الإيمان ، ويظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة ، ويتطلب من المؤمن أن يقبل على الطاعة وإن شقت عليه ، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصى ؛ وأن يعرف أن للمعاصى لذة عاجلة ، لكن عقابها كبير ، كل ذلك هو من مطلوبات البر والإيمان ، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس ، أو إلى المشرق هو المشكلة ؛ لأن وجوهكم ستتولى إلى جهة ما وإن لم تؤمروا . والبر كما نعلم هو الخير الواسع الذى يشمل كل وجوه الجمال فى الكون . يقول الحق : « ولكن البر من ءامَنَ » .

ولماذا جعل الله الحديث عن البر حديثا عن ذات مجسدة ؛ برغم أن البر معنى ؟ . إن الحق يجسد المعنى وهو البر فى ذات العبد الذى آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعانى يجعل الذات مجسدة فيه . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما نقول : «فلان عادل» ، أى نحن نصفه بما يحقق للسامع أنه رجل يعرف العدل . ولكن عندما نقول : « فلان عدل » فكأنه هو العدل ذاته ، وكذلك عندما نقول : « فلان صادق » فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق ، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصدق يوما ، ولكن حين نقول : « فلان صدق » فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا ينحل عنه أبدا ، أو أن الحق يريد أن يقول لنا : لكن صاحب البر هو من آمن بالله ، أو يقول : « ولكن البر هو بر من آمن بالله » ، أو أن الإخبار بالذات « من آمن » عن الصفة « البر » دليل على امتزاج الذات فى الصفة امتزاجا لا تنحل عنه أبدا فكأن البر قد تجسد فيهم .

وكل هذه الأقوال يتسع لها النص القرآني الكريم .

والحق يقول : « ولكن البر من آمن بالله » هذه بداية الإيمان ، ويأتي بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ « اليوم الآخر » ، إن بداية القوس هي الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

وهنا نتساءل : وكيف يأتي الإيمان باليوم الآخر ؟

نقول : يأتي الإيمان باليوم الآخر بأن تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله ، فلا تقل : أنا جعلتهما في صف واحد ، بل الإيمان بالله أولا ، وبعد ذلك الايمان بما أخبرنا به الله ، وقد أخبر سبحانه : أن هناك يوماً آخر ، فصدقت ما أخبر به . وتأتي مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق : « والملائكة » فكيف تؤمن بخلق من خلق الله لا تراه ؟

إننا مادمنا قد آمنا بالقمة ، وهي الإيمان بالله ، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة ، وحتى لو كان وجود الملائكة غيبيا فنحن نؤمن بها ؛ لأن الذي أخبر بها هو الله ، وكذلك نؤمن بالجن برغم أننا لا نراه ، وكل ما يتعلق بالغيبيات هو إخبار ممن آمنت به ؛ لذلك تؤمن بها .

والمسائل الإيمانية كلها غيبية ، ولا تقول في الأمر الحسي : « إني آمنت به » ، إنما تقول : « آمنت » في الأمر الغيبي ؛ لأنه أمر غيبي لا تأنس به الحواس والإدراكات ، وتريد أن تجعله عقيدة ، والعقيدة هي أمر يُعقد فلا ينحل أبدا ، ولأنه أمر غيبي فربما ينفلت منا ؛ لأنه لو كان أمرا مشهديا لما غفل عنه الإنسان أبدا ؛ لأن مشهديته ستجعلك تتذكره ، إنما هو أمر غيبي ، ويسمى عقيدة ، أي أمراً معقوداً لا يُحل أبدا .

والقمة العقدية هي أن تؤمن بالله ، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها ، فإن رأيت في متعلقات الإيمان أمورا محسة فاعلم أن

الجهة فى الإيمان منفكة ، لأنه سيأتى ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب ، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبيين ، وهما محسوسان .

صحيح أن الكتاب أمر محس والنبيين كذلك ، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب ، وأن الله بعث النبيين . ونحن لم نكن على قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبى ، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الوحى نزل بالكتاب ، وأن الله اختار محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون مبلغا لهذ الوحى ، وكل هذه أمور غيبية لم نرها .

والغيبيات هى أرضية الحركة الإيمانية ؛ أو أساس الإيمان .

وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدى ، لتبين لنا أن البر مكون من أمور عقدية هى أساس لأمور حركية ، والأمور الحركية هى المقصودة من كل تدين . فالحق سبحانه لا يعنيه أن يؤمن به أحد ، ولا يعنيه أن تؤمن بملائكته ، وكتبه ورسله ، لكن الأمر الذى يريده الله هو أن تنتظم حركة الحياة فى الأرض بمنهج الله ، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادى فيقول : « وآتى المال على حبه » كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك « آتاه » . وعندما تقول : « أتيت » فهى تعنى أعطيت ، وهى تختلف عن « أتيت » التى تعنى « جئت » .

وما هو المال ؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شىء يمكن أن يأتى بكل متمول وأسميناه بالنقد . وأصبحت له الغلبة ؛ لأننا نشترى بالنقد كل شىء ، لكن المعنى الأصل للمال هو كل ما يتمول ، وكيف يجىء المال لك أو لى أو لأى إنسان ؟ . أخَرَجَ أحد منا من بطن أمه وهو يملك شيئا ؟ . لا .

إن ما يملكه الإنسان يأتى إما من متحرك فى الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك ، وإما من حركتك أنت .

إذن لا يقال : « آتى المال » إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولا ، أو ورث

عن متمول ، والمتمول هو الذى يتحرك فى الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه ، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده .

والحق يقول : « وآتى المال على حبه » وكلمة الحب مصدر ، والمصدر أحيانا يضاف إلى فاعله ، وأحيانا يضاف إلى المفعول الواقع عليه ، مثلا كلمة « ضرب » نحن نقول : ضرب زيد عُمَرَ ، وهكذا نجد ضاربا هو « زيد » ومضروبا هو « عمر » . وإذا قيل : « أعجبنى ضَرْبُ زيدٍ » . إن قلت : « لعمر » عرفنا الضارب والمضروب ، وإن سكت عند قولك : أعجبنى ضرب زيد » فهى تحتمل معنيين ، الضرب الصادر من زيد ، أو الضرب الواقع على زيد . فساعة تأتى بالمصدر ويضاف إلى شىء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله .

« وآتى المال على حبه » يمكن أن نفهمها على أكثر من معنى : يمكننا أن نفهمها على أنه يعطى المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتى المال لأنه يحب أن يعطى مما يحبه من المال عملا بقول الله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . . وهى تحتمل المعنيين . ويمكن أن تُصَعِّد المعنى فيصير « وآتى المال على حب الإيتاء أى الإعطاء » أى يحب الإعطاء وترتاح نفسه للإعطاء ، ومن الممكن تصعيدها تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى : وآتى المال على حب الله الذى شرع له ذلك ، وكل هذه المعانى محتملة .

والحق يقول :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

ويقول سبحانه أيضا :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة آل عمران)

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين الملكية ، وبين حب المملوك ، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها ، ولكن ليس كل ما تملكه تحبه ، فعندما تؤتى المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا تحبه . وبذلك أخرجته من ملكيتك فقط ، وإما أن تكون محبا للشيء الذى تعطيه لغيرك ، وبذلك تكون قد أخرجته من ملكيتك ، ومن حبك له .

وإما أن يكون المال الذى فى يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة فى قلبك ، ولذلك يقول الشاعر :

لا أبالى توفير مالى لدهرى
منفقا فيه فى رخاء وبأس
إن يكن فى يدى وليس بقلبى
فهو ملكى وليس يملك نفسى

إن قوله الحق : « آتى المال على حبه » تعطينا إما منزلة إخراجه من الملك وإما منزلة إخراجه من القلب الذى يحبه . ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله ، لكنهم لا ينفقون لله إلا مما يكرهون . ويقول الله فى حقهم « ويجعلون لله ما يكرهون » .

ولكن لمن يكون ذلك المال الذى ينطبق عليه القول : « وآتى المال على حبه » ؟ .

إنه ، لـ « ذوى القربى » ألا ترون إنسانا له حركة فى الحياة قد اتسعت لنفسه ، ثم ترى قرباه الذين لا يقدرون على الحركة محتاجين ، كيف تكون حالة نفسيته إذن ؟ . لابد أن تكون نفسية متعبة ؛ لأن المفروض فى الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه ، ونذكر فى هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميرا للمسلمين ، ودخل عليه الحاجب وهو يقول : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعى أنه « أخوك » ، فقال معاوية : أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتى ؟ أدخله .

فلما دخل الرجل قال له معاوية : أى إخوتى أنت ؟
قال : أخوك من آدم .
فماذا قال معاوية : ؟.
قال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكونن أول من وصلها . وأكرمه .

فإذا كان الانسان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافة ، ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه ؟. كيف يستطيب المؤمن ـ إذن ـ نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محتاجين ، حتى لو نظرنا بعيدا عن الدين والإنسانية ، ألا تستحق المسألة أن يجود الإنسان بما عنده على أهله ؟.

وفى دائرة الإيمان حين يجعل الله حركة الحياة فى التكافل دوائر ، فهو سبحانه يريد أن يوزع خير المجتمع على المجتمع ؛ لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتقاء بين الرجل والمرأة بعقد علنى وشهود ، لماذا ؟. لأن الثمرة من الزواج هى الأبناء التى ستأتى بقطاع جديد من البشر فى الكون ، وهذا القطاع لابد أن يكون محسوبا على الرجل أمام الناس ، وإن لم يرع الرجل فى أبنائه حق الله يلمه الناس على ذلك لأنهم أبناؤه .

ولذلك عندما نرى شخصا يخفى زواجه ، كأن يتزوج زواجا عرفيا مثلا نقول له : أنت تريد أن تأتى بثمرة منك ثم تنكرها ، فيأتى أبناء غير محسوبين عليك . ولذلك فلتكن على ثقة من أن كل مشرد فى الأرض نراه هو نتيجة لخطيئة إما معلنة ، وإما لا يقدر على إعلانها رجل لم يتحمل مسئولية علاقته بالمرأة ، ولا يهمل رجل ولدا منسوبا له إلا إذا تشكك فى نسبه إليه ، وهذا ما يجعله ينكر نسبه .

إذن فعملية الطهر التى أرادها الله سبحانه وتعالى فى الالتقاءات بين الرجل والمرأة ، إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبناء أجيال جديدة ، ينشأ منها مجتمع المستقبل ، وقبل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون لهم رصيد وأساس يتحملهم ، فجعل الله لنا الأولاد والأحفاد ، ويوصى الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك ، ثم

تتسع الدائرة للقرابة القريبة .

وهات واحداً واصنع له هذه الدائرة ، وهات آخر واصنع له الدائرة نفسها ، وثالثاً واصنع له دائرته ، واصنع إحصاء للقادرين وحدد دوائرهم العائلية ، ستجد كل إنسان في الكون يدخل في دائرة من هذه الدوائر ، فإن رأيت عوجاً فاعلم أن مركز الدائرة قد تخلى عن محيط الدائرة .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتى المال على حبه ذوى القربى » ، تأمل - إذن - الحث على البر تجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوي القربى ؛ لأن لهم مكانة خاصة ؛ وعندما يؤتى كل من قرباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد محتاج ، وإذا وُجِدَ المحتاج فسيكون نزراً يسيراً ، وتتسع له الزكاة الواجبة .

أو كما قال بعض العلماء : المقصود بذوى القربى هم قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون ذلك ؛ لأن في القرآن آية تقول :

﴿ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ولماذا قربى رسول الله ؟

لأنهم ليس لهم حق في الزكاة ؛ حتى يبرأ المبلغ عن الله من أى نفع يعود عليه ، أو يعود على آله ، لذلك منع الله عنهم أى حق في الزكاة . وكأن الله يريد أن يقول لنا : لا يصح أن تجعلوا الناس الذين رفعهم الله وكرمهم عن أخذ الزكاة التي يأخذها أى فقير منكم ممنوعين من أخذ كل شيء ، فلا بد أن تتخذوهم أقارب لكم بحيث لا تجعلونهم محتاجين .

وعلى فرض أن الآية تريد قُرباناً نقول : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ، فقرباه وآله أولى من قربانا وأهلنا .

وبعد ذلك جاء الله بقوله : « واليتامى » ، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال . واليتيم فى الإنسان غير اليتيم فى الحيوان ؛ فاليتيم فى الحيوان هو من فقد أمه ، ولكن اليتيم فى الإنسان هو من فقد أباه . واليتيم لا يكون له وصى إلا إذا كان عنده شىء من مال ، عندئذ يكون هناك وصى لإدارة أمور اليتيم . ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى ، ولم يقل:« لذوى اليتامى » . فربما كان هناك يتيم ضائع لا يتقدم أحد للوصاية عليه ، وليس عنده ما يستحق الوصاية ؛ لذلك فعلينا أن نؤتى اليتيم من مال الله حتى ندخل فى صفات البر ، أو نعطى للوصى على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصى .

وكذلك نؤتى المال للمساكين ، والمسكين مأخوذة من السكون ، وهو الإنسان الذى لا قدرة له على الحركة ، كأن استخذاءه وذله فى الحياة منعاه من الحركة .

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير ، ومن هو المسكين ، قال بعضهم : إن الفقير هو من لا يملك شيئا ، والمسكين يملك ما لا يكفيه ، أى يملك شيئا دون ما يحتاجه ، وقال البعض الآخر : إن الفقير هو الذى يملك ما هو دون حاجته ، والمسكين من لا يملك .

وعلى كل حال فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل للفقير نصيبا من البر . وللمسكين أيضا نصيبا كالآخر ، والخلاف بين العلماء لا يؤدى إلى منع أحدهما من المال ، لأن كُلاً منهما ـ المسكين والفقير ـ يستحق من مال الله . وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه .

وكذلك نؤتى المال لابن السبيل ، والسبيل هو الطريق ، وابن السبيل هو ابن الطريق ، وعادة ما يُنسب الإنسان إلى مكانه أو إلى بلده ، فإذا قيل ابن السبيل ، فذلك يعنى أنه ليس له مكان يأوى إليه إلا الطريق ، فهو رجل منقطع ، وقد يكون ابن سبيل ذا مال فى مكانه ، إلا أن الطريق قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك ، أو يكون ذا مال وسرق منه ماله ، فهو منقطع .

ولماذا جعل الله نصيبا من البر لابن السبيل ؟ . لقد جعل الله نصيبا من المال لابن السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافله الإيماني متعدٍ إلى بيئة وجوده ، فحين يوجد في مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون في بيئة إيمانية متكافلة .

ونؤتي المال أيضا للسائلين أي الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال ، أعط من يسألك ولو كان على فرس ؛ لأنك لا تعرف لماذا يسأل ، إن بعضاً من الناس يبررون الشُح فيقولون : إن كثيرا من السائلين هم قوم محترفون للسؤال ، ونقول لهم : مادام قد سأل انتهت المسألة ، وعمدتنا في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس »(١)

ومادام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد .

قد يظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز ، أو يخفي المال بعيداً . وأقول : قد يكون عنده خبز لكنّه لا يكفي أولاده ، وقد يخفي المال الذي لا يكفيه ، ولن تخسر شيئاً من إعطائه ، فلأن تخطئ في العطاء ، خير من أن تصيب في المنع .

ونؤتي المال أيضاً لمن هم « في الرقاب » وكلمة « رقبة » تُطلق في الأصل اللغوي على أصل العنق ، وليس على العنق نفسه . وتطلق كلمة الرقبة على الذات كلها ، أي الإنسان في حد ذاته ، لماذا ؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقة ، فتستطيع أن تمسك إنساناً من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضغطاً تمنع نفسه إلى أن يموت ، لذلك تطلق الرقبة ويراد بها الشخص ذاته ، وفي ذلك يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة البلد)

أي فك الأسير ، إذن « في الرقاب » تعني فك أسر العبد ، ويمكن لصاحب البر أن

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن عدي في الكامل من أبي هريرة رضي الله عنه وهو ضعيف

يشترى العبد ويعتقهم ، أو يسهم فى فك رقابهم فذلك لون من ألوان تصفية الرق ، وفى تصفية الرِّق هناك شىء اسمه التدبير ، وشىء اسمه المكاتبه

هب أن عبداً يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أخلص فى خدمتك ، فثمناً لإخلاصه فى خدمتك مدة طويلة قررت أن تُدَبِّره بعد موتك ، أى تعطيه حريته فيصبح حراً بعد موتك ، فكأنك علقت عبوديته على مدى حياتك ، وبعد انتهاء حياتك يصبح مدبراً أى حراً ، ولا يدخل فى تركتك ، ولا يُورَث .

وقد تكاتبه على مال فتقول له : يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه ، وأطلق حركتك لتتصرف أنت وتضرب فى الحياة وتكسب وتأتى لى بالمائة جنيه ، ثم أطلق سراحك ، وفى هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المُكاتب ليؤدى مال الكتابة حتى يفك رقبته من الأسر .

ومن البر أيضا إقامه الصلاة ، كأن المعنى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة » ونعرف أن معنى إقامة الصلاة هى أداء الصلاة فى أوقاتها على الوجه المطلوب شرعاً .

ومن البر أن تؤتى الزكاة ، فكأن كل ما سبق « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » لا علاقة لها بالزكاة ، إن كل ذلك هو برّ آخر غير المطلوب للزكاة ، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيما سبق لما كان الله كرّرها فى الآية .

هذه أوجه البر التى ذكرتها الآية من إيتاء ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكل ذلك لمن أراد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلزم نفسك بشىء لم يفرضه الله عليك ، إنما تحسن أنت بفرح الله بك ورضاه عنك فيقبله الله منك

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر